من أسرار التقديم في القرآن الكريم -دراسة بلاغية تحليلية

د.عبد الرحمن الطيب عبدالواحد خليفة

أستاذ البلاغة والنقد كلية اللغة العربية – جامعة

أمدرمان الإسلامية - السودان

dr.abdou114@gmail.com

الملخص

إن ظاهرة تقديم ركن من أركان الجملة العربية وتأخير الركن الآخر تتم وفقاً لأغراض بلاغية متنوعة يلحظها المتكلم ، وينظم حديثه وفقاً لهما لكي يُؤَدَّى المعنى أداءً سليماً وواضحاً ، كما إنه يكسب الأسلوب قوة وجمالاً . وفي فضل التقديم والتأخير أورد عبدا لقاهر الجر جاني كلاماً جميلاً مبيناً شأن التقديم والتأخير ، فقد أولاه عنايته ، وفصل القول فيه ، وقد بدأ الحديث فيه بالإشارة إلى فضله ، وبيان أنواع التقديم وما تكون علية ، موضحاً أن التقديم على نوعين :

أ - نوع يكون التقديم فيه على نية التأخير ، أي أن هذا التقديم لا يخرجه عن بابه ولا يحوله عن أصله ، وذلك كأن تقدم الخبر على المبتدأ مثلاً فتقول : فوق الشجرة طائر ، أو تقدم المفعول على الفاعل ، فتقول : قطفَ الزهرةَ عليٌّ ، فقد بقي المبتدأ مبتدأ ، والخبر خبراً في المثال الأول ، وبقي الفاعل فاعلاً والمفعول مفعولاً في المثال الثاني .

ب - نوع يخرج فيه المقدم عن أصله ويُحول عن بابه ، ويأخذ حكماً جديداً ، وذلك في الخبر المعرفة ، نحو قولك : زيدٌ المنطلق ، والمنطلق زيدٌ ، فحين قدمنا الخبر لم يعد خبراً وإنما صار مبتدأ ، وصار زيد الذي كان مبتدأ خبراً ، ومثل تقديم المفعول في قولنا : ضربتُ زيداً ، فإننا حين نقدم فنقول : زيدٌ ضربتهُ ، يتحول المفعول إلى مبتدأ خبره الجملة الفعلية بعده ، ويعمل الفعل في ضميره.

وقد أدرك شيخ البلاغيين ذلك عندما قال : إنه قدم للعناية ولأن ذكره أهم ، من غير أن يُذْكر ، من أين كانت تلك العناية ، وبم كان أهم ؟ ولتخيلهم ذلك ، قد صغر أمر " التقديم والتأخير " في نفوسهم ، وهوّنوا الخطْب فيه ، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلّف. وهذا ما وقع فيه ظن كثير من الناس .

وفي ترتيب كلمات القرآن الكريم وجدنا أسباباً متعددة لتقديم لفظ على لفظ في آيات وتأخرت في آيات لسياق الحديث، وهذا كله مؤداه السياق العام للقرآن الكريم وبلاغته المعجزة. لأنّ أسلوب التصوير القرآن في رسم مشاهده وإيضاحها،سس ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقديم والتأخير، فقد أبرزت المعاني والصور والمشاهد عن طريق المعنى أو المشهد الحسي لتأكيد الكلام وتثبيت المشاهد وإطلاق الخيال للمستمع أو القارئ.

5

Research Summary

The phenomenon of providing corner of the Arabic sentence and delay the other corner are in accordance with the purposes of rhetorical variety unnoticed speaker, and organizes his speech, according to them, in order to lead a sound sense and clear performance, as he earns strength and beautiful style. In the preferred presentation and delay a slave to a compelling cited traction Jani words beautiful noting would surrender and the delays, it has given by his care, and the separation of say in it, and talk began the reference to the bounty, and the statement of the types of presentation and be, pointing out that the introduction of two types:

A. Type the presentation in which the intention of the delay, which means that this submission does not get it out from the door and turns it on its origin, and that was offering news on the Debutante for example, says: Above the tree a bird, or provide effect on the actor, says: picking Venus Ali, has remained Debutante tyro, the news story in the first example, and remained an active and effective force effect in the second example.

B) type which comes out submitted its origin and turns on his door, and takes a new) provision, in the news of knowledge, about your saying Zaid mind, and spirit Zaid, when we introduced the news is no longer news, but became a tyro, and became Zaid, who was tyro news, and such provision in effect in our saying: hit Zaida, we offer when we say: Zaid hit him, becomes in effect, beginning to experience beyond the actual sentence, and shall act in his conscience.

Sheikh Albulageyen have realized that when he said he made because of the care and said the most important, it is not to mention, Where was the care, WPM was the most important? To Tejelhm it, "surrender and delays" may command small in them, they played down the speeches, so that you see to see the most followed and consider it a form of affectation. This is what happened when he thought a lot of people.

In the order of the words of the Koran and found multiple reasons for providing utter the word in the verses and verses of late in the context of the modern, and this year the whole context of the Koran and the effect his eloquence miracle. Because the method of imaging the Koran in drawing watch and clarified, SAS has been associated closely Apply delays, it has highlighted the meanings and images and scenes through the meaning or sensuous scene to confirm the speech and install the viewer and the launch of the imagination of the listener or the reader.

تمهيـــد:

إن ظاهرة تقديم ركن من أركان الجملة العربية وتأخير الركن الآخر تتم وفقاً لأغراض بلاغية متنوعة يلحظها المتكلم ، وينظم حديثه وفقاً لهما لكي يُؤَدَّى المعنى أداءً سليماً وواضحاً ، كما إنه يكسب الأسلوب قوة وجمالاً . وفي فضل التقديم والتأخير يقول عبدا لقاهر الجر جاني : (هو بابٌ كثير الفوائد ، جمّ المحاسن ، واسع التصرف ، بعيدُ الغاية ، لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ ، ويُفْضِي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مَسْمَعُهُ ، ويلطف لديك موقعُهُ ، ثم تنظر فتجد سببَ أنْ راقك ولطف عندك ، أنْ قُدّم فيه شيء ،وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان)[1]

ولما كان هذا شأن التقديم والتأخير ، فقد أولاه عبد القاهر عنايته ، وفصل القول فيه ، وقد بدأ الحديث فيه بالإشارة إلى فضله ، وبيان أنواع التقديم وما تكون علية ، ور أى أن التقديم على نوعين[22] :

أ - نوع يكون التقديم فيه على نية التأخير ، أي أن هذا التقديم لا يخرجه عن بابه ولا يحوله عن أصله ، وذلك كأن تقدم الخبر على المبتدأ مثلاً فتقول : فوق الشجرة طائر ، أو تقدم المفعول على الفاعل ، فتقول : قطفَ الزهرةَ عليٌّ ، فقد بقي المبتدأ مبتدأ ، والخبر خبراً في المثال الأول ، وبقي الفاعل فاعلاً والمفعول مفعولاً في المثال الثاني .

ب - نوع يخرج فيه المقدم عن أصله ويُحول عن بابه ، ويأخذ حكماً جديداً ، وذلك في الخبر المعرفة ، نحو قولك : زيدٌ المنطلق ، والمنطلق زيدٌ ، فحين قدمنا الخبر لم يعد خبراً وإنما صار مبتدأ ، وصار زيد الذي كان مبتدأ خبراً ، ومثل تقديم المفعول في قولنا : ضربتُ زيداً ، فإننا حين نقدم فنقول : زيدٌ ضربتهُ ، يتحول المفعول إلى مبتدأ خبره الجملة الفعلية بعده ، ويعمل الفعل في ضميره.

وقد أدرك شيخ البلاغيين ذلك عندما قال : (إنه قدم للعناية ولأن ذكره أهم ، من غير أن يُذْكر ، من أين كانت تلك العناية ، وبم كان أهم ؟ ولتخيلهم ذلك ، قد صغر أمر " التقديم والتأخير " في نفوسهم ، وهوّنوا الخطْب فيه ، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلّف)[1] . وهذا ما وقع فيه ظن كثير من الناس .

اختلف علماء البلاغة في هذا الفن البلاغي ، فمنهم من عَدَّه من المجاز ، لأن تقديم ما رتبتُه التأخير كالمفعول ، وتأخير ما رتبتُه التقديم كالفاعل[2] . ولكن خالفهم في ذلك كثير منهم الزركشي ، والصحيح

[1] - دلائل الإعجاز عبدالقاهر الجرجاني ، ص ١٠٦
[2] - المصدر السابق ، ص ١٠٦
[1] - دلائل الإعجاز ، ص ١٠٨
[2] – المعجم المفصل ، ص٤١٢ ، أنظر أصول البلاغة ص ٩٣

أنه ليس منه ، لأن المجاز نقل ما وضع له إلى ما لم يوضع ، في الإسناد أو في المعنى ، وكل تلك الشروط لم تتوفر في هذا الفن ، لذا لا يصح جعله من المجاز.

ولابد أن نشير إلى نقطة مهمة وهي أن رتبة المسند إليه التقديم ، وذلك لأن مدلوله هو الذي يخطر أولاً في الذهن لأنه المحكوم عليه ، والمحكوم عليه سابق للحكم ، فلهذا تقدم وضعاً ، ولتقديمه دواعي وأسرار بلاغية عظيمة سنقف عندها بإذن الله ٠ ومعلوم أن الألفاظ قوالب المعاني كما أشار إلى ذلك صاحب نظرية النظم ، فيجب أن يكون ترتيبها الوضعي حسب ترتيبها الطبيعي ، ومن البين والمعلوم كذلك أن ركني الجملة هما المسند والمسند إليه ، وما عداهما فهو متعلقات وتوابع تأتي تالية لهما في الرتبة ، ولكن قد يعرض لبعض الحكم من المزايا والاعتبارات ما يدعو إلى تقديمها ، وإن كان من حقها التأخير ، فيكون من الحسن إذاً تغيير هذا الأصل واتباع هذا النظام ليكون المقدم مشيراً إلى الغرض الذي يؤدي إليه ، ومترجماً عما يريد . وبالتالي ورد عن بعضهم أن التقديم لا يخلو من أحوال أربع[1] :

أ – ما يفيد زيادة في المعنى مع تحسين في اللفظ ، وذلك هو الغاية القصوى ، وإليه المرجع في فنون البلاغة ، والكتاب الكريم هو العمدة في هذا ، انظر إلى قوله تعالى :﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ القيامة(٢٢ –٢٣) ، نجد أن التقديم هنا قد أفاد التخصيص ، وأن النظر لا يكون إلاّ لله مع جودة الصياغة وتناسق السجع.

ب –ما يفيد زيادة في المعنى فقط نحو : ﴿ بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الزمر ٦٦) ، فتقديم المفعول أفاد التخصيص بالعبادة ، وأنه ينبغي ألاّ تكون لغيره ، ولو أُخر ما أفاد الكلام ذلك .

جـ –ما يتكافأ فيه التقديم والتأخير ، وليس لهذا الضرب شيء من الملاحة كقوله :

وكانتْ يدي مَلأَى به ثم أصبحتْ بحمدِ إلهي وهي منه سَلِيبُ

فتقديره : ثم أصبحت وهي منه سليب بحمد الله.

د –ما يختل به المعنى ويضطرب ، وذلك هو التعقيد اللفظي ، كتقديم الصفة على الموصوف ، أو نحو ذلك كما في قول الفرزدق[1] :

إلى ملكٍ ما أمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُوهُ ولا كانَت كُلَيبٌ تُصَاهِرُهُ

فتقديره : إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، أي ما أم أبيه منهم ، ولا شك أن هذا لا يفهم من كلامه للنظرة الأولى ، بل يحتاج إلى تأمل وترتيب ورفق حتى يفهم المراد منه . لكن البلاغيين بحثوا الأمر بحثاً فكرياً منطقياً دقيقاً ، ناظرين على حال المخاطب ، وما الأعرف لديه من ركني الإسناد اللذين هما من المعارف . فأيّ المعرفتين هو الأعرف بالنسبة إليه ، وحالتُه تتطلب مزيداً من العلم عنه يُجعل هو المبتدأ ، والركن الآخر

[1] – جواهر البلاغة ، ص١٢٣

[1] - ديوان الفرزدق ، ج١ ، ص ٤١٧

يُجعل هو الخبر ، وتُرتب له الجملة بتقديم المبتدأ وتأخير الخبر . فمن عرف مثلاً الإمام الشافعي وجهل أنه هو الشاعر الأول بين الفقهاء يقالُ له : الإمام الشافعيُّ الشاعرُ الأولَ بين الفقهاء ، ومن عرف وجود شاعر هو الشاعر الأول بين الفقهاء ، واستقر ذلك في ذهنه وسمع شعره أو قرأه ، وهو لا يعرف أنه هو الإمام الشافعي يقال له : الشاعرُ الأولَ بين الفقهاء الإمام الشافعي[1] .

لأن الأصل في الجملة الاسمية تقديم المسند إليه " المحكوم عليه " وهو المبتدأ وما يتصل به ، وتأخير المسند " المحكوم به " وهو الخبر وما يتصل به ، وبعد ذلك تأتي متعلقات الخبر المماثلة لمتعلقات الفعل ، إذا كان الخبر مما يعمل عمل الفعل ، أو جملة مصدره بفعل . أما الأصل في الجملة العربية فهو تقديم المسند " المحكوم به " وهو الفعل ، ويُلحق به ما يعمل عمل الفعل ، وتأخير المسند إليه " المحكوم عليه " وهو الفاعل أو ما ينوب منابه ، ثم تأتي متعلقات الفعل أو ما يعمل عمله .

البلاغيون بصفة خاصة ، وأهل اللغة بصفة عامة يقرون في هذا الفن ما يشبه الأصل ، ويجعلون ما يأتي بعد ذلك متفرعاً عليه. ويحدد عبدالقاهر هذا الأصل بما أطلق عليه " العناية والاهتمام " . فالمقدم عندهم هو ما كان موضع الاهتمام ، وما كانت العناية به أشد ، عندما قال : واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل ، غير العناية والاهتمام .

قال صاحب الكتاب[1] وهو يذكر الفاعل والمفعول :(كأنهم يقدمون الذي ببيانه أهمُّ لهم ، وهم ببيانه أعنَى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم)[2] . ولبيان ذلك قال سيبويه في جملة ضرب عبدُالله زيداً :(فإن قدمتَ المفعول وأخرتَ الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول وذلك قولك : ضرب زيداً عبدُالله ، لأنك إنما أردت به مؤخراً أردت به مقدماً ، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخراً في اللفظ ، فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدماً ، وهو عربي جيد كثير ، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعْنَى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم)[3] .

ولكن شيخ البلاغيين لم يكتفِ بهذا القول الذي يتصف بالعموم ، ورأى ضرورة أن يُعرف من أين تأتي العناية ؟ ولمَ كان الاهتمام ؟ . ذلك لأن الوقوف عند القول بالعناية والاهتمام دون اتصال المعرفة بما وراء ذلك دفعهم إلى التهوين من شأن العلم وقدره . وهو لهذا السبب يفصل القول في التقديم والتأخير ويجعل من الخطأ النظر إلى الأمر نظرتين مختلفتين ، فتارة تكون للتقديم فائدة مذكورة ومنصوص عليها ، وأخرى غير موجودة إنهم يعللون التقديم مرة بالعناية ، لكنهم في أخرى يجعلونه مجرد توسعه على الشاعر والكاتب ، حتى تطّرد لهذا قوافيه ولذاك سجعه ، ومن البعيد عنده " أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل تارة

[1] – البلاغة العربية – عبدالرحمن حبنكه : ص٣٥٦
[1] - إشارة إلى سيبويه
[2] - الدلائل : ص ١٠٧
[3] - كتاب سيبويه: تحقيق عبدالسلام هرون ، ج١ ، ص ٣٤ ، مكتبة الخانجي ، ط٣ ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م

أخرى لذا نجد الشيخ لم يقتنع برأي من قال إن الغرض من التقديم محصور في العناية والاهتمام . فالاكتفاء بهذا القول قد قلل من شأن التقديم وهونه في النفوس . بل إن الوقوف عند القول بالعناية والاهتمام ، قد صرف القوم عن معرفة البلاغة ومقاديرها ،وصدَّهم عن الجهة التي هي فيها .فكان رأي الشيخ أن كل تقديم لابد أن يكون له غرض معنوي ، وأنه من الخطأ أن يقسم الأمر في التقديم والتأخير إلى مفيد تارة وترجع إفادته إلى معنى الكلام ، وغير مفيد تارة أخرى والغرض منه أمر لفظي ، وقد وضحنا ذلك.

تُبنى الألفاظ في الآية بالتقديم والتأخير،تبعاً لمقاصدها ، وأسبابها ، إذ لا يتقدم لفظ أو يتأخر في آية من الآيات ، إلاّ لموجب يقتضيه ، ولداع من المعنى يطلبه ويستدعيه ، وذلك ما ستبينه هذه الدراسة ، معتمداً فيها على ذكر بعض الأمثلة ، التي تبين ذلك التصريف العجيب ، والبناء الدقيق . ومثل ذلك في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (سبا ٥١) ، قال بدوي طبانة : (تأويله والله أعلم : ولو ترى إذا فزعوا وأخذوا من مكان قريب فلا فوت ، لأن الفوت يكون بعد الأخذ)[٢] . ولأن من سنن العرب تقديم الكلام وهو في المعنى مؤخر ، وتأخيره وهو في المعنى مقدم . ومن ذلك قوله جل ثناؤه :﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (التوبة ٥٥) ، المعنى : لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا[١] .

معلوم أن الواو لمطلق الجمع ، ولا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً ، وليس معنى ذلك أن الآية القرآنية ، تجمع بها معطوفات على غير ترتيب ولا نظام ، وإذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض ، فقد حرصت الجملة في القرآن على أن يكون هذا التقديم مشيراً إلى مغزًى ، دالاً على هدف ، حتى تصبح الآية بتكوينها تابعة لمنهج نفسي ، يتقدم عنها فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير ، فيتقدم مثلاً بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذي يدار عليه الحدث وحده ، فيكون هو المقصود والمعني ، والنفس يتقدم عنها من يكون هذا شأنه ، فلا جرم أن يتقدم في الجملة كما تقدم في النفس[٢] .

ففي القرآن الكريم نجد أن التقديم يمثل مظهراً من مظاهر الإعجاز البياني فيه ، ذلك أن إنزال الكلمات في منازلها واستغلال معطيات التقديم النحوي والدلالي والجمالي المتمثل في رؤوس الآي ، واعتدال المقاطع ، وتناسب الفواصل ، هو مما شغل علماء القرآن والإعجاز والبلاغة . والبحث باستخدام التقديم والتأخير في الأسلوب القرآني لا ينحصر في دائرة تركيب الجمل ، بل يتناول إلى جانب ذلك مباحث أخرى كترتيب الصفات وترتيب المتعاطفات ، ومن جملة ما يميز لغة القرآن مراعاة الفاصل.

[٢] – معجم البلاغة العربية : ص ٥٢٨
[١] – معجم البلاغة العربية : ص ٥٢٩
[٢] – من بلاغة القرآن : أحمد أحمد بدوي ، ص ١١٢

فالتقديم والتأخير إذن عملية فنية تحتاج إلى خبرة بفن القول ، وترتبط – عادة – بالمستويات العليا من نصوص اللغة ، ولذا (نلاحظ أنه كلما قلّ المستوى الثقافي للمتكلم مالت لغته إلى الترتيب المألوف للجملة اسمية أو فعلية ، ويتضح ذلك كثيراً في لغة الصحافة اليومية واللهجات المعاصرة ، وهي تميل إلى نمط الجملة الثابتة بوضوح ، فإذا ما نظرنا في الكلام الفصيح ، وأعلاه القرآن الكريم ، ثم الحديث النبوي ، ثم أشعار العرب ونثرها الفني ، كل ذلك ستظهر فيه بلاغة التقديم والتأخير ، ولولا وجوده لضاقت اللغة على أهلها ، وذهب كثير من جميل القول ، وعذب البيان ، غير أنهم جعلوا الإعراب ميزاناً لهذا كله)[1] . قال ابن يعيش : (ولو اقتصر البيان على حفظ المرتبة فيعلم الفاعل بتقديمه والمفعول بتأخره لضاق المذهب ، ولم يوجد من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الإعراب)[2] .

مفهوم التقديم والتأخير

لأن التقديم والتأخير في اللغة متناقضان ، حيث يعني الأول بوضع الشيء أمام غيره وقد كان خلفه ، ويعني الثاني بوضع الشيء خلف غيره وقد كان أمامه ، وبالمعنى نفسه (انتقل هذا المبحث من الوضع اللغوي إلى الدلالة الاصطلاحية ، إذ اعتاد العرب تقديم ما حقه التأخير لفضل دلالة وتمام معنى ، وتأخير ما حقه التقديم للغرض ذاته ، وذلك يجعل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصلية أو بعدها لعارض اختصاص أو أهمية أو ضرورة)[1] . ولا شك أن العرب كانت تفعل ذلك دلالة على ملكتهم في صوغ الكلام وحاجتهم إلى إصابة المعنى ، وتحقيق الغرض ، فورد في كلامهم (وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق)[2] .

وعند تناولنا لهذا الفن من خلال آي الذكر الكريم ، وشواهده الغنية بالمزايا ، تتضح لنا أكثر أهمية التقديم ودوره المتعاظم الذي يؤديه بغية إيصال المعنى المراد من الكلام ، وكيفية بناء الجملة لتؤدي غرضها داخل النص ، وكيف أن المتكلم يحتاج إلى التقديم والتأخير بغية تمام المعنى وإيصاله على الوجه المراد ، وقد يكون بقاء التقديم – لما رتبته التقديم أصلاً – واجباً وداعياً من واجبات إيصال المعنى ودواعيه دون المساس برتب الألفاظ في الجملة.

فالتقديم والتأخير ظاهرة تطبع الجملة العربية في كثير من صورها ، فهذا الفن مجال المبدعين وميدان الشعراء والناثرين ، وهو مجال خصب لبلاغة القول ، تتفاوت فيه القرائح ، لذا ليس بغريب على عبدالقاهر حين أولاه اهتمامه ، ورصعه بالعبارات الجميلة ، منوهاً إلى عظم قدره وعلو مرتبته بين سائر فنون البلاغة الأخر.

---

[1] – الفواصل القرآنية (دراسة بلاغية) – د. السيد خضر ، جامعة المنصورة ، كلية التربية – ص ٩٦ ، مكتبة الإيمان ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠ م

[2] – شرح المفصّل ، ١ \ ٧٢ ، ط ٠ مكتبة المتنبي

[1] – التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية ، د. مختار عطية ن ص١٥ ، دار الوفاء لدنيا الطباعة ، الأسكندرية ، ٢٠٠٥ م

[2] – البرهان في علوم القرآن : ص ٢٣٣

والحقيقة أن التقديم والتأخير كثيراً ما يرتبطان بالمستويات العليا من الكلام ، وبحالة المتكلم أو الكاتب النفسية والفكرية ، ومما يقرره اللغويون المحدثون أن : (مخالفة النظام المألوف في ترتيب الكلمات قد يقع في الأساليب التي تشبه الشعر الموزون ، كبعض الخطب العنيفة الحماسية ، وفي كل أسلوب انفعالي عاطفي كالذي يكون في الحوار والمحاجة)[1] ، لأن (مخالفة الترتيب المألوف للكلام تثير انتباه المتلقي ، وتصرف الفكر والاهتمام إلى ذلك المقدم ، والقرآن نازل بلغة العرب وعلى مذاهبهم وسننهم في استعمال لغتهم حيث ورد فيه التقديم والتأخير كثيراً ، وصرفه النحاة والبلاغيون – عادة –إلى الاهتمام والاختصاص)[1] .

فلا شك إذن في أن للتقديم والتأخير دوراً في تحقيق بلاغة الجملة ، لما يضفيه على الأسلوب من إعادة بناء الكلام طبقاً لما يحتاجه المقام ، بحيث تتعلق هذه الفائدة بإرادة الأديب أو المتكلم مع حسه ، ونتيجة لذلك تتحقق الرغبة المرجوة وهي التركيب الجيد ، وهذا الجانب النفسي يتطلب وجوده لدى كل من الكاتب أو الأديب .

لأن للبلاغيين في درس التقديم والتأخير طرائق تبحث في دلالة تقديم بعض أجزاء الجملة على بعض ، لتحقيق ما يريده المتكلم ، وحاجة المخاطب ، حيث يتقدم المفعول على الفعل والفاعل كما يتقدم الظرف والحال على الفعل ، والخبر على المبتدأ ، وخبر كان على أسمها ، والمستثنى على المستثنى منه ، كما تتقدم بعض متعلقات الفعل عليه . ويقع ذلك كله في الإثبات ، أما في النفي فكانت لهم بحوث عميقة المغزى حول تقديم النفي على ألفاظ العموم " كل وجميع " ، كما درسوا التقديم والتأخير في الاستفهام بأنواعه وأنماطه ، سواء أكان استفهاماً حقيقياً أم تقريرياً أم إنكارياً ، أم نكرة تقدمت على الفعل ، أو الخبر في ألفاظ بعينها منها : " مثل وغير " و " إنما " . لأن التقديم والتأخير ليس عملية لفظية للتلاعب بالكلمات ، إنما هو عملية لفظية دلالية في آنٍ معاً ، فمتى تقدم لفظ كان حقه التأخير أو تأخر وحقه التقديم وصدر ذلك ممن يُعرف عنه الاجتهاد في صياغة البيان ، أمكن تحليل الكلام لمعرفة الجمال الفني الذي أحدثه ذلك المبدع بالتقديم والتأخير.

وإذا أردت أن تعرف خطر التقديم والتأخير ، فاستمع إلى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ (البقرة ٢٥٨) ، ولم يقل : يحيي ويميت ربي . والفرق كبير ، فقوله : ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ، يفيد أنه لا محيي ولا مميت إلاّ الله ، ولو قيل : يحي ويميت ربي، لكان المعنى : إن الله قادر على الإحياء والإماتة ، ولا مانع أن يقدر عليهما غيره . ولهذا قال ذلكم المجادل : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ . أي أنا لا غيري ، لأن النزاع ليس على قدرة الله على الإحياء والإماتة ، بل في تفرد الله سبحانه

[1] – من أسرار اللغة ، د. إبراهيم أنيس ص ٣٤١
[1] – بحث منشور بمجلة كليات المعلمين ، للدكتور السيد علي خضر ، ص ١٣٦

وتعالى بهما اتضح بعد هذه النماذج التي أوردناها أهمية التقديم والتأخير، وعظم شأن النظم الذي هو عمود إعجاز القرآن ، الذي نراه يقدم الكلمة تارة ويؤخرها أخرى ، وإنه كان للعرب تفنن في نطقهم وهنا لابد أن نقرر أمراً مهماً ، وهو أن أمر التقديم والتأخير إنما قرر قواعده وبينها أفضل بيان الإمام عبدالقاهر الجرجاني – رحمه الله – وكان الناس من قبل عبدالقاهر يتحدثون عن التقديم والتأخير حديثاً عاماً ، فيقولون : إنما يقدم الشيء للاهتمام به .

فنحن عندما نقدم بعض أجزاء الجملة تارة ، ونؤخرها تارة ، فإننا لا نفعل ذلك رغبة في التعبير أو تفنناً في القول فحسب ، إنما ذلك ناشئ عن اختلاف المعنى الذي يريده المتكلم ، فالكلام البليغ لا يجوز أن يكون التقديم فيه لغرض لفظي فقط ، بل يكون مع هذا الغرض اللفظي هدف يتعلق بالمعنى ، فلسنا مع ابن الأثير ومن نهج نهجه من أن بعض الكلمات قُدمت مراعاة للفاصلة ، كقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة ٥) ، وقوله : ﴿ فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ (الضحى ٩) ، وقوله :﴿ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ (الحاقة ٣١) فإن تقديم المفعول في الآيات الكريمة لا من أجل رعاية الفواصل فحسب ، بل إن هناك غايات تتصل بالمعنى .

أولاً : التقديم والتأخير في الاستفهام

يفرق البلاغيون في درس التقديم والتأخير في الاستفهام بين ما كان التركيب فيه جارياً على الاستفهام الحقيقي ، وما كان جارياً على الاستفهام التقريري ، وما كان الاستفهام فيه إنكارياً ، ولكلٍّ دلالاته البلاغية وغاياته التي تحقق مغزى الكلام.

إن أدوات الاستفهام ، بما فيها الهمزة وهل ، لا يتقدم عليها عنصر التركيب الاستفهامي . هذا هو الأصل[1] .ومعنى هذا أن تقدم الفاء على اسم الاستفهام (أين) في قوله تعالى : ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ (التكوير ٢٦) وعلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام ٩٥) . وقد عدّ سيبويه تقديم الاسم على الفعل في أسلوب الاستفهام المصدر بهمزة الاستفهام حسناً ، ومثله تقديم الخبر – شبه الجملة – على المبتدأ المعرفة قائلاً : (فلو قلتَ : ألقيتَ زيداً أم عمراً ؟ كان جائزاً حسناً ، ولو قلت : أعندك زيد أم عمرو ؟ كان كذلك ، وإنما كان تقديم الاسم – ها هنا – أحسن)[2] . وهذا الذي ذكره سيبويه يتناقض مع ما قاله البلاغيون ، لأنهم أوجبوا إيلاء المستفهم عنه الهمزة – كما مر بنا – وسيبويه يجوز تأخيره ، بل يعده حسناً . وقال صاحب دلالات التراكيب : (ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن ما أجازه سيبويه كان في مراحل سابقة ، اللغة فيها تنمو ، والتراكيب تتطور ، ثم إنّ الترقي في التراكيب الهادف إلى تنقية الصياغة قد تجاوز ذلك إلى الصورة المنضبطة التي قررها البلاغيون ورفضوا ما عداها مما

[1] – الشرط والجزاء في الأساليب العربية ، ص ١٥٣
[2] - المصدر السابق : ص ١٥٣

أجازه سيبويه واستحسنه ، وإشارة سيبويه إلى أن هناك تركيبين يفيدان هذا المعنى أحدهما أفضل من الآخر وأحسن ، توحي بصحة هذه الإجابة)[1] .

وتتصدر محاولات البلاغيين ، جهود عبدالقاهر الجرجاني الذي تناول تركيب الاستفهام على وجوهه المختلفة ، والدلالات الفنية لكل وجه ، وأول ما عالجه من هذه المسائل (الاستفهام بالهمزة) . فذكر أن (الهمزة) إذا وليها الفعل دلت على معنى ، وإذا وليها الاسم دلت على معنى آخر وهو مع المفعول لون لا يتكامل مع الفعل . فالتقديم والتأخير – عند الجرجاني –لا يأتيان للاهتمام أو العناية ، وإنما يأتيان لتحرير المعنى وضبط الدلالة .

أما التقديم في الاستفهام فإن الزمخشري كغيره من البلاغيين يرى أن المستفهم عنه ما يلي الهمزة ، وحينما يدخل معنى جديد على حرف الاستفهام كالإنكار أو التعجب فإن الذي يلي هذا الحرف هو المقصود بهذا المعنى الجديد[1] .

لذلك امتازت هذه الدراسة بالدقة والشمول ، فالقرآن يختار لكل مقام ما يناسبه ، وقد تابع السكاكي والخطيب وغيرهما خطوات الجرجاني والزمخشري ، واعتمدوا جهديهما وإن تفرد كل منهم بآراء مخالفة لهما .

أغراض الاستفهام في القرآن

أولاً : الاستفهام الحقيقي :

أيقع في القرآن ؟ وهل يصدر من المولى ؟

قال ابن هشام : لا يكون الاستفهام من المولى على حقيقته ، وقال آخر : لا يكون الحقيقي في القرآن إلا على دعوى أنه مجاز ، لأنه يستلزم الجهل وهو على الله محال ، والذي ورد في القرآن كان من قول البشر دائماً ، لذا وقعت جملة الاستفهام الحقيقي معمولة للقول أو السؤال ، لأن الاستفهام الحقيقي في القرآن قليل ، وكل ما عرفته من أساليب بلغ (١٩) أسلوباً من مجموع الاستفهام القرآني كله (١٢٦٠) أي : بنسبة ١ : ٦٦ تقريباً. وهذه الأساليب وليها الجواب عليها بلسان من وُجه إليه السؤال[1] . ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل ٣٨ -٤٠) ، فالسؤال من سليمانَ عليه السلام فكانت الإجابة عليه مباشرة بلسان من

[1] – دلالات التراكيب : للدكتور محمد أبوموسى ، ص٣١٩ ، أنظر : علم المعاني : بسيوني عبدالفتاح فيود ، ص ٣٠٨
[1] – البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، دكتور محمد حسنين أبوموسى ، ص ٢٨٩
[1] – أساليب الاستفهام في القرآن : عبدالعليم السيد فوده ، ص ١٩٢

وُجّهْ إليه السؤال. ومثال قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (الصف ١٤) ، وكقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة ١٨٩).

وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآَرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى ﴾ (طه ١٧ -٢١) ، قال السيوطي : ((وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى) : وما التي في يمينك يا موسى ؟ (قال هي عصاي أتوكأ عليها) ، قال موسى : أعتمد (عليها) عند الوثوب والمشي ، (وأهش) أخبط ورق الشجر (بها) ليسقط (على غنمي) فتأكله ، (وَلِيَ فِيهَا مَآَرِبُ) جمع مأربه ، أي : حوائج كحمل الزاد والسقاء وطرد الهوان ، وزاد في الجواب بيان حاجاته بها)[1] . فتلك العصا أمرها عظيم وسرها أعظم ، لأنه قد يكون للسؤال مقصد ومغزى غير حقيقة الاستفهام ، وغير هذه المعاني التي أشرنا إليها ، كأن يُراد لفت المسؤول إلى المسؤول عنه ليتبيّنه أشدّ التبيُّن تمهيداً لإحداث أمر عظيم فيه ، يقول الزمخشري : (إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وجل في الخشية اليابسة من قلبها حية نضاضة ، وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه وينبهه على قدرته الباهرة)[2] .

وخلاصة القول : إن الذي يُعتمد عليه أكبر الاعتماد في الدلالة على الأغراض البلاغية لأساليب الاستفهام هو السياق والقرائن ، فلن نتبين الغرض تبيناً واضحاً إلاّ إذا عرفنا القائل ، والمقول له ، والأحوال المحيطة بهما مما يدخل تحت القرائن المعنوية والقرائن اللفظية ٠ ولعل نصيب هذه القرائن في الدلالة على تلك المعاني البلاغية أكبر من نصيب أدوات الاستفهام أنفسها في الدلالة عليها كما سيتضح بإذن الله تعالى.

ثانياً : الاستفهام غير الحقيقي

أ -التقديم والتأخير في الاستفهام التقريري:

معنى التقرير في القاموس[1] : الإقرار ، الإذعان للحق ، وقد قرره عليه ، وقرَّ بالمكان يقرّ بفتح القاف وكسرها قراراً ثبت وسكن ، وأقره فيه وعليه ، وقرره .

الاستفهام التقريري أحد المعاني التي يخرج الاستفهام عن حقيقته إليها ، فإن الاستفهام لا يكون حقيقياً إلاّ إذا كان المتكلم جاهلاً بالمسؤول عنه . أما في التقرير فإن المتكلم عالم به ، ولكنه يريد من المخاطب

[1] – تفسير الجلالين : ص ٦٤٤
[2] - الكشاف : ج٣ ، ص ٤٤
[1] - القاموس المحيط : الفيروز أبادي

أن يوافقه لغرض من الأغراض ، كالحكم عليه بإقراره ، والتشهير به وإظهار أمره للناس ، وقد يقرر بأمر ممدوح إظهاراً للتستر عليه ، أو رفعاً من شأنه.

كيف نعرف المقرر به ؟

١ -إذا كان التقرير قد أُدِّيَ باسم من أسماء الاستفهام فمدلول ذلك الاسم هو المقرر به.

٢ -أما إذا كان التقرير بالهمزة فأين يقع المقرر به ؟ وهو ما يهمنا – ففي التلخيص وشروحه -أن الهمزة يليها المقرر به فاعلاً كان أو مفعولاً أو غير ذلك [٢] . وعبدالقاهر يقول في قوله تعالى : قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء ٦٢) ؟ لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له وهم يريدون أن يقرّ لهم بأن كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقرّ بأنه منه قد كان ، ولذا قال في الجواب " بل فعله كبيرهم " ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب فعلتُ أو لم أفعل .

ويقول الخطيب القزويني : يجوز أن تكون الآية دالة على الاستفهام الحقيقي ، ولكن الشراح يردون عليه مؤيدون رأي عبدالقاهر بأن السياق يجعلهم عالمين بكسر الأصنام لها لقوله:(لأكيدن أصنامكم) وبأن البيئة كلها تعظم الأصنام ولا يجرؤ على تكسيرها سواه. والذي يظهر [٣] : أن إيلاء المقرر به للهمزة ليس لازماً ، بل هو غالب ، ويكثر ذلك في أساليب الهمزة وأم المتصلة كقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ (الواقعة ٧١ -٧٢) وقوله : ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ ﴾ (البقرة ١٤٠) ، وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾(المائدة ١١٦) ، ففي الآيات تقرير للمخاطبين .

وقد يلي الهمزة غير المقرر به كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (سبأ٤٠) فإنه يقرر المخاطَبين من الملائكة ، ولكنه أُلي الهمزة اسم الإشارة الذي يعود على من أشركوا بالله غيره .

لذا يرى علماء البلاغة أن التقرير كالاستفهام ، يجب أن يلي المقرر به الهمزة. فإذا أردت أن تقرر بفعل ، كالسرقة مثلاً ، فقل: " أسرقتَ " ؟ وإذا أردت أن تقرر بالمفعول ، فقل : " أخمراً شربتَ ؟ " .

صاحب الكشاف يورد كلاماً ، مبيناً قصد إبراهيم – عليه السلام – من خلال الآية السابقة قائلاً : (إن قصد إبراهيم – عليه السلام -لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ٠ ولقائل أن يقول :(غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة ، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد لما رأى من زيادة

[٢] – في تلخيص المفتاح وشروحه ، ص ٢٩٤

[٣] - أساليب الاستفهام في القرآن : عبدالمنعم السيد فوده ، ص ٢٣١

تعظيمهم له ، فأسند الفعل إليه ، لأنه هو الذي تسبب لاستهانته بها وحطمه لها ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه ، ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم ، كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم ، فإن مِنْ حق مَنْ يُعبد ويُدعَى إلهاً أن يقدر على هذا وأشد منه ، ويحكي أنه قال : فعله كبيرهم هذا ، غضب أن تُعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها .وقيل : فعله كبيرهم ، يعني : فلعله، أي: فلعل الفاعل كبيرهم)[1] .

ويُفهم من كلام الجرجاني والزمخشري أن تقديم الاسم المصدر بـ " همزة " الاستفهام على الخبر الفعلي يشير إلى أنه الفاعل دون غيره ، أي : أن الاستفهام - في مثل هذا الموضع –لتعيين القائل ، كما هو المتبادر من إيلاء الهمزة المبتدأ على الاستعمال المشهور ٠ ويضيف الجرجاني : (لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له – عليه السلام – وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقرّ بأنه منه كان ، وقد أشاروا إلى الفعل في قولهم : (أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا ؟) ، وقال عليه السلام في الجواب : " بل فعله كبيرهم هذا " ولو كان التقرير بالفعل وكان الجواب : فعلتُ ، أو : لم أفعل)[1] . وقد يكون مستأنفة جواب سؤال مقدر ، وفي الكلام حذف تقديره : (فجاء إبراهيم حيث أتوا به فاستفهموه هل فعل ذلك لإقامة الحجة عليه في زعمهم " قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوه " أي : قال إبراهيم مقيماً للحجة عليهم مبكتاً لهم ، بل فعله كبيرهم هذا مشيراً إلى الصنم الذي تركه ولم يكسره)[2] . أراد عليه السلام أن يبيّن لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ، ولا يصح في العقل أن يطلق أنه إله ٠ فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة ، إذا قالوا إنهم لا ينطقون ، قال لهم : فكيف تعبدون من يعجز عن النطق لأنهم ، ويقصر من أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه .

ومن اللافت للنظر أن الخطيب القزويني عارض هذا الرأي ، فقال : (وفيه نظر ، لجواز أن تكون الهمزة على أصلها ، إذ ليس في السياق ما يدل على أنهم كانوا عالمين بأنه – عليه السلام – هو الذي كسر الأصنام)[1].

(ب) التقديم والتأخير في الاستفهام الإنكاري :

ورد في القاموس : (أنكر فلان الأمر نكِرا ونُكْراً ونكوراً ونكيراً وأنكره واستنكره وتناكره : تجاهله ، والاستنكار استفهامك أمراً تنكره . وتناكر : تجاهل. والمنكَر ضد المعروف)[1] . فإذا أنكرتَ أمراً فإنك تظهر أنك نافر منه ، راغب عنه ، لأنك لا تألفه بل لا تعرفه كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (هود ٧٠) .

---

[1] – الكشاف : ج ٤ ن ص ١٥٢ – ١٥٣
[1] – الدلائل : ص ١١٣
[2] – فتح القدير ك للشوكاني ، ج ٣ ن ص ٥٤٣
[1] - الإيضاح : ص ١٤٢
[1] – القاموس المحيط : الفيروز أبادي ، باب الراء

يقول شيخ البلاغيين في تفسير الاستفهام الدال على الإنكار : (أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيَ بالجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له : " فافعل " ، فيفضحه ذلك ، وإما لأنه همَّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعلهُ ، فإذا رُوجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله)[1] .

ويفهم من كلام الشيخ أن الإنكار يجيء فيما لا يقول عاقل أن يكون إذ يحقق التقديم والتأخير في الاستفهام الإنكاري غرض ردع المتكلم عما يخوض فيه ، وتكشّف أمره فيما يدعيه ، فإذا تقدم الفعل في أمر محال ، فهو إنكار لوقوعه ، مثل: أتصعد إلى السماء ؟ وإذا تقدم الاسم فهو إنكار لقدرة الفاعل على القيام بمثل هذا الفعل المحال ، مثل : أأنت تصعد إلى السماء ؟ ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي العُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الزخرف ٤٠) ،يقول صاحب الكشاف (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد ويجتهد ويكدّ روحه في دعاء قومه ، وهم لا يزيدون على دعائه إلاّ تصميماً على الكفر وتمادياً في الغيّ ، فأنكر عليه بقوله " أفأنت تسمع الصم " ، إنكار تعجب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم ، وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر)[2] ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر ٢٢ -٢٣) ، فهنا ليس بمقدوره – عليه السلام – أن يقوم بهذا الفعل ، وهو محال عليه (وهو الهداية) ، ولا يقدر على ذلك إلاّ هو، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ٨٠). وهنا نجد فريقاً من العلماء من يقول إن الاستفهام في هذه الآية للإنكار ، وفريقاً يقول إنه للتقرير ، ويبدو في هذا تدافعاً ، لأن الإنكار نفي والتقرير إثبات ، وهما لا يجتمعان في مثال واحد ، ويبدو -كذلك -أن التوفيق بين الأمرين ممكن ؛ (فالإنكار منظور فيه إلى ناحيتين وهما : الوقوع والواقع ، فإنكار الوقوع منصب على اتخاذهم العهد ، إذ لا عهد لهم متخذ عند الله فأنكر وقوعه أصلاً . وإنكار الواقع منصب على قولهم على الله بما لا علم لهم به ٠ وهذا القول واقع فعلاً كما حكى عنهم القرآن: (وقالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودات) ، فأنكر هذا الواقع وحكم ببطلانه . أما التقرير فإن المراد منه حمل المخاطبين على أن قولهم ذلك لا سبيل إليه إلاّ باتخاذ العهد ، ولا عهد ، وهذا يؤدي إلى حملهم على الاعتراف بأنهم ما قالوه إلاّ رجماً بالغيب. إذ لا علم لهم به ، فالإنكار منظور فيه إلى نفي الحقيقة من حيث هي هي ، والتقرير منظور فيه إلى حال المخاطبين .وهذا هو وجه الجمع بين ذينك القولين اللذين يبدوان أنهما متدافعان)[1] .

---

[1] – دلائل الإعجاز : ص ١١٩ – ١٢٠

[2] - الكشاف : الزمخشري ، ج ٥ ، ص ٤٤٥

[1] – التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم : د٠ عبدالعظيم إبراهيم المعطى ، ج ، ص ٢٧ – ٢٨

إن المتأمل في هذه النقول يدر – في يسر – أن الأئمة لم يهتموا بمدخول الهمزة بقدر اهتمامهم بأم الواقعة بعدها ، وأياً كان الأمر فإن الهمزة فيه للإنكار . أما أم فقد اجمعوا على احتمالها للاتصال والانقطاع – فيما عدا القرطبي[1] الذي أجمل القول فيها – فإن كانت متصلة كان المعنى : أي هذين واقع : اتخاذهم العهد أم قولهم بلا علم .

ومثل ذلك ورد في تقديم لفظ (غير) المصَّدر بهمزة في عدة مواضع من القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ؟ ﴾ (الأنعام ١٤) وفي تأويل ذلك يقول الطبري : (يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد للذين يدعونك إلى اتخاذ الآلهة أولياء من دون الله ، ويحثونك على عبادتها ، أغير الله فاطر السموات والأرض ، وهو يرزقني وغيري ولا يرزقه أحد ، أتخذ ولياً هو له عبد مملوك وخلق مخلوق)[1] .

ونلاحظ أن همزة الاستفهام قد تصدرت المفعول الأول " غير " المتقدم على الفعل " أتخذ " ليؤدي التركيب دلالة الإنكار لا مطلق اتخاذ الولي ، واعلم أنه فرق بين أن يقال : " أغير الله أتخذ ولياً ؟ " ، وبين أن يقال: " أتخذ غير الله ولياً ؟ " ، لأن الإنكار إنما حصل على اتخاذ الولي ، وقد عرفت أنهم يقدمون الأهم ، فالأهم الذي هم بشأنه أعنَى فكان قوله تعالى : " قل أغير الله أتخذ ولياً " أولى من العبارة الثانية. والقرآن الكريم يختار مقام ما يناسبه من النظم ، ففي مقام الإنكار الشديد لاتخاذ غير الله ولياً يتناسب أن يلي المفعول " الهمزة " . وإلى مثل هذا التركيب أشار الجرجاني بقوله : (واعلم أن حال المفعول فيما ذكرنا كحال الفاعل ، أعني أن تقديم اسم المفعول يقتضي أن يكون الإنكار في طريق الإحالة والمنع من أن يكون ، بمثابة أن يوقع به مثل ذلك الفعل ، فإذا قلت : " أزيداً تضرب ؟ " ، كنت قد أنكرت أن يكون " زيد " بمثابة أن يُضرب ، أو بموضع أن يُجْتَرَأَ عليه ويُسْتَحارَ ذلك فيه ، ومن أجل ذلك قُدم " غير " في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ؟ ﴾ (الأنعام ١٤) ، وقوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ ﴾ (الأنعام ٤٠) وكان له من الحسن والمزية والفخامة ، ما تعلم أنه لا يكون لو أُخّر فقيل : " قل أأتخذ غير الله ولياً " و " أتدعون غير الله ؟ " ، وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك : " أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً ؟ " وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ وأيكون جهل " أجهل – وعمّى أعمى من ذلك ؟ ")[1] .

والحق أن التقديم – هنا – للاهتمام بشأن المقدم ليلي أداة الاستفهام ، فيعلم أن محل الإنكار هو اتخاذ غير الله ولياً ، فليس الإنكار موجهاً إلى اتخاذ الولي ، وإنما هو موجه إلى أن يكون غير الله بمثابة أن يُتخذ ولياً.

[1] - أنظر الجامع لأحكام القرآن الكريم
[1] – تفسير الطبري : ج ٧ ، ص ١٥٩
[1] – دلائل الإعجاز : ص ١٢١ ، أنظر : الكشاف ج ٢ ، ص ٣٢٩ ، فتح القدير : ج ٢ ، ص ١٥٠

وقد يرد كذلك في تقديم لفظ " هم " المصّدر بهمزة كما في قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا (الزخرف ٣٢) . تقدم أداة الاستفهام على الاسم أفاد الإنكار الدال على التجهيل والتعجب من إعراضهم وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة ٠ ثم ضرب لهذا مثلاً حيث قال : " نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات " . أي : أفقرنا قوماً وأغنينا قوماً ، فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف أمر النبوة إليهم . أشار شيخ البلاغيين[1] إلى أن تقديم الاسم – هنا – على صيغة " يفعل " ، أفاد الإنكار أن يكون الفاعل وهذا قريب من تأويل الزمخشري للآية الكريمة ، يقول الزمخشري : (هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجب من اعتراضهم وتحكمهم ، وأن يكون المدبرين لأمر النبوة ، والتخير لها من يصلح لها ، ويقوم بها والمتولين لقسمة رحمة الله التي يتولاها إلاّ هو بباهر قدرته وبالغ حكمته ٠ فإن الله عز وجل هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالها تدبير العالم بها ، ولو وكلهم الله إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم لضاعوا وهلكوا ، وإذا كانوا في تدبير معيشتهم في الحياة الدنيا على هذه الصفة ، فما ظنك في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى).[1]

التقديم للتخصيص أو تقوية الحكم

بين عبد القاهر والسَـكاكي

يرى عبد القاهر أنه إذا تقدم المسند إليه على خبره الفعلي ، وكان والياً لحرف النفي ، فإنه يفيد قصر نفي الخبر عليه وجهاً واحداً ، سواء كان المسند إليه معرفاً أو منكّراً ، وسواء كان المعرف مظهراً أو مضمراً . أما إذا لم يكن المسند إليه والياً لحرف النفي ، وكان خبره فعلياً ، ولم يكن نكرة فإنه يأتي للتخصيص ، إن كان المخاطب حكم على خلاف حكمك ، وللتقوية إن لم يكن له هذا الحكم ، والمرجع في ذلك إلى القرائن والمقامات أما إذا كان نكرة فإنه للتخصيص قطعاً ، إلا أنه يتنوع إلى نوعين : تخصيص الجنس وتخصيص العدد ، واشترط السكاكي في إفادة التقديم الاختصاص أمرين[2] :

الأول: أن يجوز تقدير كونه في الأصل مؤخراً ، بأن يكون فاعلاً في المعنى ، كقولك: أنا قمتُ ، فإنه يجوز أن تقدر أصله: " قمتُ أنا " على أن " أنا " تأكيد للفعل الذي هو التاء في " قمتُ " فقُدِّم " أنا " وجُعل مبتدأ.

الثاني: أنه يُقدر كونه كذلك ، فإن انتفى الثاني دون الأول ، كالمثال المذكور إذا أجري على الظاهر – وهو أن يقدر الكلام من الأصل مبنياً على المبتدأ والخبر ، ولم يقدر تقديم وتأخير . أو انتفى الأول ، بأن يكون المبتدأ اسماً ظاهراً ؛ فإنه لا يفيد إلاّ تقوّي الحكم.

[1] – أنظر الدلائل ، ص ١٢٢
[1] - الكشاف : ج ٣ ن ص ٤٨٦
[2] - مفتاح العلوم : ص ٢٩١

واستثنى المنكَّر ، كما في نحو : " رجل جاءني " بأن قدر أصله " جاءني رجل " لا على أن " رجل " فاعل جاءني ، بل على أنه بدل الفاعل الذي هو الضمير المستتر في " جاءني " كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ (الأنبياء ٣) ، إن " الذين ظلموا " بدل من الواو في " أسروا " وفرق بينه وبين المعرفة بأنه لو لم يقدر ذلك فيه انتفى تخصيصه ؛ إذ لا سبب لتخصيصه " سواه " ، ولو انتفى تخصيصه لم يقع مبتدأ ، بخلاف المعرّف ؛ لوجود شرط الابتداء فيه ، وهو التعريف.

خلاف بين مذهب عبد القاهر ومذهب السكاكي[1] :

فكلام السكاكي مخالف لما ذكره عبد القاهر ؛ لأن ظاهر كلام الشيخ فيما يليه حرف النفي ؛ القطع بأنه يفيد التخصيص مُضمراً كان أو مظهراً ، معرفاً أو منكراً ، من غير شرط ، لكنه لم يمثل إلاّ بالمضمر . وكلام السكاكي صريح في أنه لا يفيده إلا إذا كان مضمراً ، أو منكراً بشرط تقدير التأخير في الأصل . فنحو : " ما زيد قام " يفيد التخصيص على إطلاق قول الشيخ ، ولا يفيده على قول السكاكي . ونحو " ما أنا قمتُ " يفيده على قول الشيخ مطلقاً ، وعلى قول السكاكي بشرط. وظاهر كلام الشيخ أن المعرف إذا لم يقع بعد النفي وخبره مثبت أو منفي ؛ قد يفيد الاختصاص ، مضمراً كان أو مظهراً ، لكنه لم يمثل إلا بالضمير . وكلام السكاكي صريح في أنه لا يفيد إلا المضمر ، فنحو " زيد قام " قد يفيد الاختصاص عل إطلاق قول الشيخ ، ولا يفيد عند السكاكي .

ومن أسرار التقديم ما ورد في قوله عز وجل: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ (يس ٤٠) ، وقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ (القصص ١٩) .

تناولت الآيتان قصة الرجل ، فمن هو ؟ الرجل الذي في القصص معاصر لموسى -عليه السلام – وهو مؤمن من آل فرعون ، واختلف المفسرون والمحدثون في اسمه ، وعلم مبهمات القرآن مرجعه النقل المحض ولا مجال للرأي فيه : واخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق أنه شمعان . وقال الدار قطني: إنه مؤمن لا يعرف إلا باسم شمعان . وقال السهيلي: شمعان أصح ما قيل فيه . وقيل إنه حبر وأنه حبيب وأنه حزقيل – أما مؤمن سورة يس فهو حبيب النجار ، وهو في عصر عيسى -عليه السلام – [2] وقوله: ﴿ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ) في العربية يحتمل ثلاثة أوجه:

-أحده: أن يكون من أقصى المدينة صفة لرجل

-الثاني: أن يكون صلة لجاء

-الثالث: أن يكون صلة ليسعى

[1] - الإيضاح : ص ١٤٤

[2] - البرهان في متشابه القرآن : ص ٢٨٩

والأ ظهر في هذه السورة " القصص " أن يكون وصفاً ، وفي " يس " أن يكون صلة . وخصت القصص بالتقديم لقوله قبله: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ (القصص ١٥) ، ثم قال: " وجاء رجل " . وخُصت سورة " يس " بقوله: " وجاء من أقصي المدينة رجل " : لما جاء في التفسير أنه كان يعبد الله في جبل ، فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلاً [١] .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾ (غافر ٢٨) ، يوهم التأخير خلاف المقصود[٢] ، فإنه لو أخر " من آل فرعون " عن يكتم " لتُوهم أن " مِنْ " متعلقة بيكتم صلة منه ، أي: يكتم إيمانه من آل فرعون ، فلا يُفهم أن ذلك الرجل كان منهم ، " من آل فرعون " مع أن المراد ذلك لمزيد العناية به . لأن قوله " من آل فرعون " نعت لـ " رجل مؤمن " ، وقوله: (يكتم إيمانه) نعت لـ (رجل مؤمن) ، (وهذان النعتان متكافئان في الرتبة فليس أحدهما أولى بالتقديم من الآخر ، لكن تقديم قوله: " يكتم إيمانه " على قوله: " من آل فرعون " يوهم أن الجار والمجرور في الآية متعلقان بفعل " يكتم " مع إنهما متعلقان بمحذوف هو صفة لـ " رجل مؤمن " فرفع تقديمهما هذا الإيهام ، وجاء البيان سليماً واضحاً)[٣].

وهكذا يلعب التقديم والتأخير دوراً بارزاً في إيصال المعنى المراد ، وتحقيق بلاغة الجملة من خلال إعادة توزيع الألفاظ بما يتناسب مع الدلالة المطلوبة لدى المتكلم والسامع ، بغض النظر عن البناء الأصلي (كما مر بنا من خلال الآيات) ، الذي يشكل في هذا الجانب ركيزة أساسية يمكن العدول عنها لتحقيق الغرض ولكن بمقاييس محددة لا تجور على بناء الجملة الأصلي ، ولا تحيد عنه ، والغرض من ذلك كله: الوقوف على أسرار هذا التقديم وما يشير إليه ، حتى نفهم ما يسَّره لنا الله من العلم . لأن كلامه عز وجل قال فيه أهل العلم: فيه خبر ما قبلنا ، ونبأ ما بعدنا ، وحكم فيما بيننا ، إنه الفصل وليس بالهزل . من حكم به عدل ، ومن سار عليه هُدي، ومن عمل به ظفر ونال الثواب والرضا من الله وهو غاية كل مسلم .

تقديم متعلقات الفعل عليه

(أ) تقديم المفعول على الفعل:

يقصد بمتعلقات الفعل : الزمان والمكان الذي يقع فيهما الفعل ، والجار والمجرور والحال والمفعول ومثل ذلك قولك: " محمداً أكرمتُ " والأصل ، " أكرمتُ محمداً " ، فإن في قولك بالتقديم " محمداً أكرمتُ " تخصيصاً لمحمد بالكرم دون غيره ، وذلك بخلاف قولك " أكرمتُ محمداً " ، لأنك إذا قدمت الفعل كنت بالخيار في إيقاع الكرم على أي مفعول شئتَ ، بأن تقول : أكرمتُ خالداً أو علياً أو غيرهما . فتقديم المفعول على الفعل هنا قصد به اختصاصه به ، أي اختصاص محمد دون غيره بالإكرام . وقد يأتي هذا التقديم لنفي

[١] - المصدر السابق : ص ٢٨٩
[٢] - انظر : الإيضاح ، ص ٢٠٨ ، وانظر كذلك : معجم البلاغة : ص ٥٣٤
[٣] - البلاغة العربية : عبدالرحمن حبنكه : ص ٣٩٤ - ٣٩٥

اعتقاد غير صحيح ، يقول صاحب المفتاح ، (أن يكون هناك من اعتقد أنك عرفت إنساناً وأصاب لكن أخطأ ، فاعتقد ذلك الإنسان غير زيد ، وأنت تقصد رده إلى الصواب فتقول : زيداً عرفت)[1] . فكأن القائل يجمع إلى نفي الاعتقاد تخصيص الفعل -أي المعرفة -بزيد.

علماء البلاغة[1] يرون أنه إذا قدم المفعول على الفعل ، كان تقديمه للقصر غالباً . فإذا قلتُ: " زيداً ضربتُ " ، أفاد التركيب أن " الضرب " حاصل بلا شك ، وأن المخاطب يرى أنك ضربت غير " زيد " ، فترد عليه بأنك ضربت زيداً ، ولم تضرب غيره ، وتقول لتأكيده وتقريره : " زيداً ضربتُ لا غيره " . وكذلك إذا قلت: " ما زيداً ضربتُ " ، أفاد التركيب أن " الضرب " حاصل بلا شك ، وأن المخاطب يزعم أنك ضربت زيداً ، فتنفي الضرب عن " زيد " ، وتثبته لغيره بتقديم المفعول ، وإيقاعه بعد النفي ، ولذلك لا يصح أن تقول: " ما زيداً ضربتُ ولا غيره " ، لأن تقديم الاسم وإيقاعه بعد النفي ، يفيد إثبات الضرب واقعاً على غير " زيد " ، والعطف يفيد عدم وقوعه على غيره ، فيتناقض ما أفاده التقديم .

ففي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة ٥) ، أُخر الفعل وقُدم المفعول به ، وهذا التقديم يفيد الاختصاص ، ولكن للعلوي في ذلك مذهبان[1] :

الأول: إن تقديم المفعول إنما كان من أجل الاختصاص ، وهو الذي أشار إليه الزمخشري في تفسيره ، وهو رأي أكثر علماء البيان ، وذلك لأن المفعول إذا تقدم لزم الاختصاص كما قلنا " زيداً ضربتُ " ، ولأجل ذلك تكون العبادة مختصة بالله تعالى لأجل التقدم ، وعلى هذا ورد قوله تعالى: ﴿ بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الزمر ٦٦). ولم يقل " بل اعبد الله " لأجل الاختصاص ، وعلى هذا يحمل قوله تعالى: " إياك نعبد وإياك نستعين " فتقدمه من أجل الاختصاص ، وهذا فيه نظر لقوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ (قريش ٣) . وقوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ (النساء ٣٦) . وقوله عز وجل: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾(الحجر ٩٩) ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ (الحج ٧٧) ، ولو كان التقديم من أجل الاختصاص لوجب تقديمه في هذه الآيات كلها ، فلما ورد مؤخراً عن الفعل والمعنى واحد بطل ما قاله.

ثانياً: إنه إنما تقدم من أجل المشاكلة لرؤوس الآي ، ومراعاة حسن الانتظام ، واتفاق أعجاز الكلم السجعية ، لأن قبله " مالك يوم الدين " فلو قال نعبدك ونستعينك ، لذهبت تلك الطلاوة ، ولزالت تلك العذوبة ، وهذا شيء يحكي عن بعض علماء البيان واختاره ابن الأثير.

أما فيما يتعلق بتقديم (إياك نعبد) على (إياك نستعين) ففي هذه الآية قرن الاستعانة بالعبادة ، ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته . وقدم العبادة على الاستعانة ،

[1] - مفتاح العلوم ، السكاكي ، ص: ٣٣٩
[1] - انظر : دلائل الإعجاز : ص ١٢١ ، المفتاح : ص: ٣٣٧ ، الإيضاح ص: ٢٠٧
[1] - الطراز : ص: ٦٦-٦٧

وذلك كما يقول الزمخشري : (لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها)[1] . بينما يرى الطبري أن: (" إياك نستعين " إذا قُدمت على " إياك نعبد " الأمر عنده سواء ، أي يجوز عنده أن يُقدم أو يُؤخر كل من الجملتين ولن يفسد المعنى ، ووضح ذلك عندما قال : " لما كان معلوماً أن العبادة لا سبيل للعبد إليها إلاً بمعونة من الله جل ثناؤه ، وكان محالاً أن يكون العبد عابداً إلا وهو على العبادة معان ، وأن يكون معاناً عليها إلاً وهو فاعل " كان سواء تقديم ما قدم منها على صاحبه كما سواء قولك للرجل إذا قضى حاجتك فأحسن إليك في قضائها : قضيتَ حاجتي فأحسنتَ إليَّ ، فقدمتَ ذكر قضاء حاجتك إذ قلتَ: أحسنتَ إليَّ فقضيتَ حاجتي ، فقدمتَ ذكر الإحسان على ذكر قضاء الحاجة ، لأنه لا يكون قاضياً حاجتك إلاً وهو إليك محسن ، ولا محسناً إلاً وهو لحاجتك قاضٍ ، فكذلك سواء قول القائل اللهم إياك نعبد فأعنا على عبادتك ، وقوله اللهم أعنا على عبادتك فإنا إياك نعبد)[1].

والزمخشري يلحظ أن موقع الكلمة قد يتغير في آيتين فيقدم المتأخر ثم يؤخر المتقدم ، ثم يقف ليتأمل ويستكشف السر وراء هذا العدول ، مستعيناً بسياق الآية والغرض منها . ولابد لنا من مراعاة خصوصية القرآن وعظمة أسراره وقدسية دلالة تراكيب جمله ، لأن عقولنا قاصرة عن بلوغ معانيه وخفاياه . فتقديم العبادة على الاستعانة ، تقديم للوسيلة قبل طلب الحاجة ، وذلك أنجح في توقع حصولها.

(ب) تقديم الجار والمجرور:

من لطائف ما جاء في التنزيل : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فـ " بسم " جار ومجرور ، ولابد له من فعل يتعلق به ، وهذا الفعل تقديره : (أتلو) ، أي: بسم الله أقرأ ، أو بسم الله أتلو ، وإنما قُدّر متأخراً ، ليفيد التخصيص ، فهو رد على الذين يبدؤون أعمالهم بغير اسم الله تبارك وتعالى ، فالمعنى: باسم الله أبدأ لا باسم أحد غيره ، فقدم الجار والمجرور ، وذلك لتخصيصه بالابتداء من دون غيره لما في ذلك من التبرك والتعظيم . يقول الزمخشري :(فإن قلتَ: لم قدرت المحذوف متأخراً ؟ قلتُ: لأن الأهم من الفعل المتعلَّق به المتعلِّقُ به ، لأنهم كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم ، فيقولون : باسم اللات ، وباسم العزى ، فوجب أن يقصد الموحّد معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداء ، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل) ، كما في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (الفاتحة ٥) حيث صرح بتقديم الفعل إرادة للاختصاص . والدليل عليه قوله:﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ (هود ٤١)[1] . أي: إجراؤها مجراها ومرساها باسم الله لا بهبوب الرياح وإلقاء المرساة كما يتوهمه أهل العرف.

[1] - الكشاف : ج١ ، ص: ٣٠
[1] - تفسير الطبري ، ج١ ، ص : ٧٠
[1] - الكشاف : ج١ ، ص ٣٠

وفي قوله عز وجل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق ١) قدم في هذه الآية الفعل (اقرأ) ولم يقدم الجار والمجرور " باسم " كما هو الحال في الأمثلة السابقة ، وذلك لأن المعنى المراد هنا هو تعظيم شأن القراءة ، وعليها مدار الكلام . قال الزمخشري: (تقديم الفعل أوقع ، لأنها أول سورة نزلت ، فكان الأمر بالقراءة أهم)[٢] . وأضاف السكاكي : (فالوجه فيه عندي أن يحمل : " اقرأ " على معنى أفعل القراءة وأوجدها ، على نحو ما تقدم في قولهم : فلان يُعطي ويمنع)[١] يعني إذا لم يُحتمل على العموم وهو بعيد . ومن أمثلة تقديم الجار والمجرور قوله عز وجل: ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ (الأنفال ٤٤) وهذا المثال من قصر الصفة على الموصوف ، وهو من قبيل الاختصاص ، فتقديم الجار والمجرور خص الأمور وإرجاعها إليه عز وجل دون غيره . ومثله كذلك قوله جل شأنه ﴿ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ (الأنعام ١٠٠) ، بتقديم الجار على المفعول الأول ، لأن الإنكار متوجه إلى الجعل لله ، لا إلى مطلق الجعل . ففي الآية تقديم وتأخير ، إذ الأصل : (الجن شركاء) ، وقدم المفعول الثاني على الأول ، لأن المقصود التوبيخ ، وتقديم " الشركاء " أبلغ في حصوله[٢].

نستخلص من عرضنا للآيات السابقة ، أن الألفاظ القرآنية تتصرف وفق بناء محكم ، بالتقديم تارة وبالتأخير أخرى ، إذ أنه لا يتقدم أو يتأخر إلاّ لموجب يقتضيه المقام أو لمناسبة ، يكون اللفظ فيها أنسب من غيره ، وكذلك لاختلاف المقاصد ، فيكون اللفظ الأليق في مكانه والأولى على معناه ، ليؤدي أسراره المعنوية التي يقتضيها السياق في دقة وإحكام.

وهكذا نرى القرآن الكريم ، لا ينهج في ترتيب كلماته سوى هذا المنهج الفني ، الذي يقدم ما يقدم ، لمعنى نفهمه وراء وصف الألفاظ ، وحكمة ندركها من هذا النسيج المحكم المتين. المخاطبون في الآية الأولى الفقراء المقلّين الذين يخشون الفقر ، أي : لا تقتلوهم من فقر بكم فَحَسُنَ: ، " نحن نرزقكم " ما يزول به إملاقكم " فقركم " ثم قال " وإياهم " أي نرزقكم جميعاً . والمخاطبون في الآية الثانية هم الأغنياء ، أي: خشية فقر يحصل لكم بسببهم فَحَسُنَ " نحن نرزقهم وإياكم " أما فيما يتعلق بتقديم بعض الألفاظ على بعض في السورة الواحدة ، مثل ذلك قوله عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية ١٧ -٢٠). فمناسبة تقديم الإبل على السماء أنسب ، لأن الإبل أقرب إلى الإنسان إذ يتعامل معها مباشرة ، ويعتمد عليها في حياته ، وله معرفة بها أكثر من معرفة السماء ، لذلك -والله أعلم - تقدم ذكرها ، وهو من باب الترقي من السهل إلى الصعب. وفي ذلك يضيف صاحب الطراز : (فأما تقديم الإبل ، فإنما كان ذلك من أجل أن الخطاب للعرب من أهل البلاغة ، فمن أجل ذلك كان الاستجلاءُ على حسب ما يألفونه وذلك أن العرب أكثر تعويلهم في

[٢] - المصدر السابق ، ص ٣٠
[١] - المفتاح ، ص ٣٤٢ ، أنظر: الايضاح: ص ٢٠٧
[٢] - الكشاف: ج٢ ، ص ٤٢٣

معظم تصرفاتهم على المواشي في المطاعم والملابس والمشارب والمراكب ، وأعمُّها نفعاً هي الإبل ، لأن أكثر المنافع هذه لا تصلح إلاّ فيها على العموم ، مع ما اختصت به من الخَلْق العظيم ، والإحكام العجيب ، فمن أجل ذلك صوّرها بالنظر فيها لذلك ، ثم إنه أردفها بذكر النظر في خلق السماوات ، ووجه الملاءمة بينهما ، هو أن قوام هذه الأنعام ومادة المواشي ، إنما هو بالرعي وأكل الخَلَى ، وكان ذلك لا يكون إلاّ بنزول المطر من السماء مع ما اختصّت به من التأليف الباهر ، والامتداد العظيم ، والسَّعة الكلية ، فمن أجل ذلك عقّب بها ذكر الإبل ، ثم أردف ذلك بذكر النظر في الجبال وما تضمنته من العجائب العظيمة من أجل أنهم إذا قعدوا في البراري وبطون الأودية لا يأمنون التخطُّف لهذه الأنعام والنفوس والأموال ، وأشار إليها لما فيها من التحفُّظ على أموالهم ونفوسهم ، بارتفاعها وكونها شوامخ لا يوصل إليها لعلوّها وارتفاعها ، فعقَّب بها ذكر السماء ... فأشار الله إلى هذه العجائب الأربعة لما كانت من أعظم الآيات الباهرة)[1] .

لمسات عريضة تجمع بين السماء والأرض في نظام ، وبين مشاهد الطبيعة ، ومشاهد الحياة في سياق . حيث تتسع رقعة الصورة لهذا كله ، على أساس من " الوحدة الكبيرة " بدل الوحدة الصغيرة ، تناسق فني بديع : (ريشة تجمع بين السماء والأرض والجبال والجمال ، في مشهد واحد ، حدوده تلك الآفاق الواسعة ، من الحياة والطبيعة ، والملحوظ هنا هو " الضخامة " وما تلقيه في الحس من استهوال ، والأجزاء موزعة بين الاتجاه الأفقي في السماء المرفوعة والأرض المبسوطة ، والاتجاه الرأسي بينهما في الجبال المنصوبة والإبل الصاعدة السنام . وهذه دقة تأخذها عين المصور المبدع ، في الأشكال والأحجام)[2]. ومما يلاحظ هنا بعين المصور كذلك أن لوحة طبيعية قاعدتاها السماء والأرض ، لا يبرز فيها من الجماد إلاّ الجبال ، ولا يبرز فيها من الأحياء إلاّ الجمال ، أو ما هو في حجم الجمال ، والجمل هو الحيوان المناسب ، لأنه أليف الصحراء الفسيحة التي تحدها السماء والجبال وهكذا كان التصوير . وأياً كانت الملاحظات فمردها الأول إلى المشاهدة ، مشاهدة هذه اللوحة الطبيعية التي توجه إليها الأنظار لتراها بالبداهة الملهمة ، والحس البصير ، مشهد جمال طبيعي يغري الخيال بالجولان ، ويملي للخواطر في الهيجان.

ما قُدم في آية وأُخر في أخرى

هذا النوع ينطوي على كثير من الدقائق والعجائب ، التي لا يفطن إليها إلاّ من أنار الله بصائرهم ، ومنحهم قوة الإدراك والملاحظة . لأن الألفاظ القرآنية تتصرف وفق بناء محكم ، بالتقديم تارة وبالتأخير أخرى ، إذ إنه لا يتقدم أو يتأخر إلاّ لموجب يقتضيه المقام ، أو لمناسبة يكون اللفظ فيها أنسب من غيره . ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ (البقرة ٤٨) . ومن نفس السورة قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ

[1] - الطراز : يحيى بن حمزة العلون ، ج٣ ، ص ٣١١-٣١٢ ، انظر: بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم ، ج٢ ، ص ٢٨٣
[2] - التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ، ص ١٢٣

وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ (البقرة ١٢٣) . تنوع البيان في هاتين الآيتين بتقديم الشفاعة في الآية الأولى وتأخير العدل ، وتقديم العدل في الثانية وتأخير الشفاعة ، لأسرار: (إنما قدم الشفاعة قطعاً لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم ، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله ، وأخرها في الآية الأخرى ، لأن التقدير في الآيتين معاً: لا تقبل منها شفاعة ، فتنقعها تلك الشفاعة ، لأن النفع بعد القبول ، وقدم العدل في الآية الأخرى ، ليكون لفظ القبول مقدماً فيها)[1] .

ومن ذلك قوله جل شأنه في فاتحة الكتاب: ﴿ الحَمْدُ للهِ ﴾ (الفاتحة ١) . وفي خاتمة الجاثية : ﴿ فَللهِ الحَمْدُ ﴾ (الجاثية ٣٦) فتقديم " الحمد " في الأول جاء على الأصل ، والثاني على تقديم الجواب ، فكأنه قيل عند وقوع الأمر: لمن الحمد ؟ ومن أهله ؟ ، فجاء الجواب على ذلك ، ونظيره: (لمن الملك اليوم) ، ثم قال: ﴿ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ ﴾ (غافر ١٦) .

أسباب وأسرار ما قُدم لو أُخر

اعلم أنه إذا كان مطلع الكلام في إفادة معنى من المعاني ثم يجئ بعده ذكر شيئين ، وأحدهما يكون أفضل من الآخر ، وكان المفضولُ مناسباً لمطلع الكلام ، فأنت ههنا بالخيار ، فإن شئت قدمت المفضول ، لما له من المناسبة لمطلع الكلام ، وإن شئت قدمتَ الفاضل لما له من رتبة الفضل ، وقد جاء في التنزيل تقديم السماء على الأرض وتقديم الأرض على السماء ، وكل واحد منهما تحته سر ورمز إلى لطائف غريبة ، ومعان عجيبة ، فعلى الناظر إعمال نظره في استنباطها ، وإمعان فكرة في استخراجها ، فليجدَّ النظّار الممارسون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . ولذلك أسباب وأنواعه متعددة منها:

١ -السبق:

وهو إما في الزمان ، باعتبار الإيجاد كتقديم الملائكة على البشر في قوله تعالى: ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (الحج ٧٥) . فإن مذهب أهل السنة تفضيل البشر[1] ، وإنما قدم الملك لسبقه في الوجود . وتقديم الأزواج على الذرية في قوله عز وجل:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ ﴾ (الأحزاب ٥٩) ، فإن البنات أفضل من الأزواج ، لكونهنّ بضعة منه - صلى الله عليه وسلم -وإنما قدم الأزواج ، لأنهن أسبق بالزمان[2] . وتقديم السِّنة على النوم في قوله جل شأنه: ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (البقرة ٢٥٥) لأن العادة في البشر أن تأخذ العبد السِّنة قبل النوم ، فجاءت العبادة على حسب هذه العادة[3] .

وتقديم الظلمات على النور مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (الأنعام ١) ، لأن الظلمات سابقة النور في الإحساس ، وكذلك الظلمة المعنوية سابقة للنور المعنوي ، قال تعالى: ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ

[1]- البرهان في متشابه القرآن : ص ١٢١
[1] - انظر : غرائب القرآن : ج٢ ، ص ٢٦٢
[2] - البرهان : ج٣ ، ص ٢٣٩
[3] - المصدر السابق : ص ٢٤٠

لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ (النحل ٧٨) . فانتقاء العلم ظلمة ، وهو متقدم بالزمان على نور الإدراكات . وتقديم الليل على النهار في قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ (الإسراء ١٢) لأنه سابق عليه في الزمن ، ولذلك اختار العرب التاريخ بالليالي دون الأيام ، وإن كانت الليالي مؤنثة والأيام مذكرة ، وقاعدتهم تغليب المذكر ، إلاّ في التاريخ[١] .

أو باعتبار الإنزال ك(آل عمران ١٩٩) ما في قوله جل شأنه: ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ ﴾ (آل عمران ٣ -٤). وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ﴾ (الأعراف ١٥٧) . وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . فإنما قدم القرآن منبهاً له على فضيلة المنزّل إليهم[٢] .

٢ -السببية:

كتقديم العزيز على الحكيم في قوله جل شأنه: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (آل عمران ٦٢) ، لأنه عزّ فحكم . وتقديم العليم على الحكيم في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ (البقرة ٣٢) . لأن الإحكام ناشئ عن العلم . وأما تقديم الحكيم عليه في قوله عز وجل: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام ٨٣) . وقوله تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام ١٢٨) وقوله عز وجل: ﴿ مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام ١٢٩) ، فلأنه مقام تشريع الأحكام[٣] . وقوله تبارك وتعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة ٥) . قدمت العبادة لأنها سبب حصول الإعانة ، كم مر بنا من قبل ، وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة ٢٢٢) ، قدمت التوبة لأنها سبب الطهارة . وقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ (الجاثية ٧) ، قدم الأفك ، لأنه سبب الأثم . وقوله عز وجل: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ (الفرقان ٤٨ -٤٩) . قدم إحياء الأرض لأنه سبب إحياء الأنعام والأناسي ، وقدم إحياء الأنعام لأنه مما يحيا به الناس ، بأكل لحومها وشرب ألبانها[٤] .

٣ -الكثرة:

وذلك مثل قوله عز وجل: ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ (التغابن ٢) . قدم الكافر لأنه أكثر ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف ١٠٣) ، وقوله جل شأنه: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (فاطر ٣٢) ، قدم الظالم لنفسه للإيذان بكثرته ، وأن معظم الخلق على ظلم نفسه ، ثم ثنّى بالمقتصدين ، لأنهم قليل بالإضافة

[١] - أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن : ص ٨١
[٢] - البرهان : ج٣ ، ص ٢٤١
[٣] - الإتقان : ج٣ ، ص ٤٥
[٤] - الكشاف : ج٣ ، ص ٩٥

إلى الظالمين ، ثم ثلث بالسابقين ، لأنهم أقل من المقتصدين[1] . وقوله عز وجل: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ (المائدة ٣٨) . وقوله جلّ شأنه: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (النور٢) . قدم في الآية الأولى " السارق " . لأن السرقة في الذكور أكثر ، وقدم في الثانية " الزانية " لأن الزنا فيهن أكثر[2] . وأما قوله تعالى: ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ (النور٣) . فمسوق لذكر النكاح ، والرجل أصل فيه ، لأنه هو الراغب والخاطب ، ومنه يبدأ الطلب[3] . وقوله عزّ وجل: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ (التغابن ١٤) . قيل إنما قدم الأزواج لأنه المقصود الإخبار أن فيهم أعداء ، ووقوع ذلك في الأزواج أكثر منه في الأولاد فكان أقعد في المعنى المراد ، فقدم ولذلك قدمت الأموال في قوله جل شأنه: ﴿ [إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التغابن ١٥) لأن الأموال لا تكاد تفارقها الفتنة بدليل قوله عزّ وجل :﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (العلق ٦ -٧) . وقوله تعالى: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ (الإسراء ١٦) . وليست الأولاد في استلزام الفتنة مثلها ، فكان تقديمها أولى . ومن هذا القبيل تقديم الرحمة على العذاب حيث وقع في القرآن غالباً ، ولهذا ورد: (إن رحمتي غلبت غضبي) . وأما تقديم التعذيب على المغفرة في قوله جل شأنه: ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (المائدة ١١٨) . فللسياق.

٤ -التشريف:

مثل ذلك قوله عزّ وجل: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ (الأحزاب ٣٥) وقوله جل شأنه: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ﴾ (النجم ٢١) . وأما تقديم الإناث في قوله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (الشورى ٤٩) . فلجبرهن ، إذ هن موضع الانكسار ، ولهذا جبر الذكور بالتعريف للإشارة إلى ما فاتهم من فضيلة التقديم ، لأن التعريف تنويه بالذكر ، كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم[4] .

ويحتمل إنما يكون قدم الإناث على الذكور مع تقدمهم عليهن ، لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى ، وهي قوله عز وجل ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ (الشورى ٤٨) . وكفران الإنسان بنسيانه للرحمة السابقة عنده ، ثم عقب ذلك بذكر ملكه ومشيئته ، وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث لأن سياق

[1] - المثل السائر : ص ١٨٢
[2] - الإتقان : ج٣ ، ص ٤٥
[3] - الكشاف : ج٣ ، ص ٥٠
[4] - البرهان : ج٣ ، ص ٢٥٢

الكلام أنه فاعل ما يشاء ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي هن من جملة ما لا يشاؤه الإنسان ، ولا يختاره أهم ، والأهم واجب التقديم[1] .

وتقديم الحر على العبد في قوله تعالى: الحُرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ ﴾ (البقرة ١٧٨) ، وتقديم الحي على الميت في قوله جل شأنه: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ ﴾ (فاطر ٢٢) . وتقديم الرسول على النبي في قوله عزّ وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ (الحج ٥٢) . وتقديم العاقل على غير العاقل في قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ (النور ٤١) . وأما تقديم الأنعام في قوله عزّ وجل: ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾ (السجدة ٢٧) ، فلأنه تقديم ذكر الزرع ، فناسب تقديم الأنعام .

وتقديم الذين يعملون على الذين حُرموا فضيلة العلم في قوله جل شأنه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر ٩) . وتقديم الغيب على الشهادة في قوله عز وجل: ﴿ عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ (المؤمنون ٩٢) . ، لأن علم الغيبيات أشرف من المشاهدات . وتقديم الحلق على التقصير في قوله تعالى: ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ (الفتح ٢٧) . وتقديم النبي -صلى الله عليه وسلم -على نوح ومن معه في قوله جل شأنه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب ٧) .

وتقديم جبريل على ميكائيل في قوله عز وجل: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة ٦٨) ، لأن جبريل صاحب الوحي والقلم ، وميكائيل صاحب الأرزاق ، والخيرات النفسانية أفضل من الخيرات الجسمانية[2] . وتقديم المهاجرين على الأنصار في قوله جل شأنه: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ﴾ (التوبة ١٠٠) . لأنهم أفضل بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: (لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار) ، وبالآية احتج الصديق -رضي الله عنه -على تفضيلهم وتعيين الإمامة فيهم.

وتقديم القلب على السمع والبصر في قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (البقرة ٧) ، قدم القلب على السمع والبصر ، لأن الحواس خدمة القلب ، وموصلة إليه وهو المقصود ، ثم قدم السمع على البصر لأن السمع أشرف ، ولذا وقع في وصفه -جل شانه -﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (الحج ٦١) بتقديم السمع ، وأما تأخير القلب على السمع في قوله عزّ وجل: ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ (الجاثية ٢٣) ، فلأن العناية هناك بذم المصامين عن السماع ، ومنهم الذين كانوا يجعلون القطن في آذانهم ، حتى لا يسمعوا ، ولهذا صدرت السورة بذكرهم في قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ (الجاثية ٧ -٨) ، وتقديم موسى على هارون في قوله عز وجل: ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (الأعراف ١٢٢) ، لاصطفائه بالكلام ، وكونه من أولى العزم .

---

[1] - المثل السائر : ص ١٨٢

[2] - البرهان : ج٣ ، ص ٢٥٦

وتقديم الإنس على الجن حيث ذُكروا في القرآن لشرفهم على الجن ، كقوله عزّ وجل: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء ٨٨) . وقوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (الرحمن ٣٩) . وقوله جل شأنه: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ (الرحمن ٥٦) . وقوله عز وجل: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ (الجن ٥) . وأما تقديم الجن في قوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ (الأنعام ١٣٠) ، فلأنهم أقدم في الخلق ، فيكون من قبيل التقديم بالزمان ، ولهذا لما أخر في آية الحجر صرح بالقبلية بذكر خلق الإنسان ، ثم قال : ﴿ وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ (الحجر ٢٧) .

أو لأنهم أقوى أجساماً وأعظم أقداماً ، ولهذا قدموا في قوله جل شأنه: ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الرحمن ٣٣) ، وقوله عز وجل: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ ﴾ (النمل ١٧) . ويجوز أن يكون تقديمهم على الإنس في هذه المواضع من باب تقديم الأعجب لأن خلقها أغرب[١] .

والأجود أن يقال: إنما قدم الجن في قوله جل شأنه (يا معشر الجن والأنس)، لأن المقام مقام تسلط واجتراء ، والجن أحق بذلك فلهذا قدمهم[٢] .

وأما تقديم الجن في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات ٥٦) . فلأن المقام مقام خطاب بامتثال الأوامر في العبادة ، فقدمهم لما كانت المخالفة منهم في ترك العبادة أكثر من الإنس[٣] .

وتقديم الأنفس على الأموال في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ (التوبة ١١١) . وأما تقديم الأموال في قوله تعالى: ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ (الأنفال ٧٢) ، فوجه التقديم في الجهاد يستدعي تقديم إنفاق الأموال ، فهو من باب السبق بالسببية[٤] .

وتقديم السموات على الأرض في قوله جلّ شأنه: ﴿ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ ﴾ (العنكبوت ٤٤) ، وأما تأخيرها عنها في قوله تعالى: ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (الزمر ٦٧) ، فلأن الآية في سياق الوعد والوعيد ، وإنما هو لأهل الأرض[٥] . وكذا قوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ (إبراهيم ٤٨) .

وتقديم الشمس على القمر في قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ ﴾ (الحج ١٨) ، لأن الحكماء يقولون : إن نور القمر مستمد من نور الشمس . كما تقول الحقيقة العلمية إن نوره انعكاس لأشعة الشمس عليه.

---

[١] - البرهان : ج٣ ، ص ٢٥٨
[٢] - أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن : ص ٨٩
[٣] - الطراز : ج٢ ، ص ٦٢
[٤] - البرهان : ج٣ ، ص ٢٥٦
[٥] - أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن : ص ٩٠

وأما تأخير الشمس عن القمر في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ (نوح ١٥ -١٦) . فيحتمل وجهين: إمّا مناسبة رؤوس الآي ، أو أن انتفاع أهل السموات به أكثر . قال ابن الأنباري : يقال إن القمر وجهه يضيء لأهل الشمس وظهره إلى الأرض ، ولهذا قال جلّ شأنه : (فيهن) لما كان أكثر نوره يضيء إلى أهل السماء .

٥ - الترقي من الأدنى إلى الأعلى:

ونظير ذلك قوله عزّ وجل: ﴿ أَمْ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (الأعراف ١٩٥) . حيث بدأ بالأدنى لغرض الترقي ، لأن اليد أشرف من الرّجل ، والعين أشرف من اليد ، والسمع أشرف من البصر[١] . وقد يكون الترقي في العدد من القليل إلى الكثير ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ (النساء ٣) ،وقوله جلّ شأنه: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ ﴾ (المجادلة ٧) . وأما قوله عزّ وجلّ: ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ (سبأ ٤٦) . فقد سيقت في مقام دعوتهم إلى التفكير في شأن محمد ورسالته ، وربما كان اجتماعهم مثنى ، أسرع في وصولهم إلى الحق ، فقد تعترض أحدهم شبهة ، فيبددها صاحبه ، ولهذا قدم مثنى على فرادى[٢] .

٦ -المرتبة: كتقديم " سميع " على " عليم " في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحجرات ١) . فإنه يقتضي التخويف والتهديد ، فبدأ بالسمع لتعلقه بالأصوات ، لأن من سمع حسك ، فقد يكون أقرب إليك في العادة ممن يعلم ، وإن كان علم الله تعلق بما ظهر وما بطن[٣] .

ومثل ذلك أيضاً تقديم " غفور " على " رحيم " في قوله جلّ شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة ١٧٣) . فإن المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة ، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة ، وإنما تأخرت في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ (سبأ ٢) . لأنها منتظمة في سلك تعداد أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم ، وهو قوله: ﴿ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ (سبأ ٢) . فالرحمة شملتهم جميعاً ، والمغفرة تخص بعضاً ، والعموم قبل الخصوص بالرتبة[٤] .

وقوله جلّ شأنه: ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (البقرة ١٢٥) ، قدم الطائفين لأن سياق الآية في عظم العناية بالبيت ، والطائفون أقرب ما يكنون إليه ، ثم ثنى بالقائمين وهم العاكفون ، لأنهم يخصون موضعاً بالعكوف ، والطواف بخلافه ، فكان أعم منه ، والأعم قبل

[١] - الإتقان : ج٣ ، ص ٤٦
[٢] - من بلاغة القرآن : ص ١١٢
[٣] - البرهان : ج٣ ، ص ٢٤٩
[٤] - المصدر السابق : ج٣ ، ص ٢٤٩

الأخص ، ثم ثلث بالركّع ، لأن الركوع لا يلزم أن يكون في البيت ولا عنده [1] . وقوله عزّ وجل: ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج ٢٧) . فإن الغالب أن الذين يأتون رجالاً من مكان قريب ، والذين يأتون على الضامر من البعيد[2] .

٧ - التعجب من شأنه: وذلك مثل قوله عزّ وجل:﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ (الأنبياء ٧٩) . قدم الجبال على الطير ، لأن تسخيرها له وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز ، لأنها جماد ، والطير حيوان ناطق .

الخاتمة: التقديم والتأخير في القرآن الكريم بلاغة وإبلاغ؛ لأنه يحمل أسرار إعجاز القرآن الكريم وبيانه، وهو إبلاغ لأنه يبلغ المعاني القرآنية بصورة تجعل المتلقي أمامها يقف مبهوراً بالتركيب النحوي، فالكلمات تترتب في الآيات وكأنها مسبوكة بأسلوب لا يمكن تغييره، فأيّ كلمة يتبدل مكانها يؤدي إلى تبدل المعنى.

وتأتي أهمية هذه الدراسة عن كونها ترتبط بالأبحاث القرآنية التراثية، وبعمالقة علماء البلاغة مثل عبدالقاهر الجرجاني والسكاكي والزمخشري وغيرهم. أضف إلى ذلك أن هذه الدراسة تضم آيات القرآن الكريم التي تضمنت تقديماً وتأخيراً. فكان التناول لهذه الدراسة نحوياً وبلاغياً، وأهم النتائج التي خرجتُ بها ما يلي:

١. في ترتيب كلمات القرآن الكريم وجدنا أسباباً متعددة لتقديم لفظ على لفظ، كالتبرك والتعظيم والسبق والسببية والكثرة والتشريف وغيرها.
٢. تقدمت بعض ألفاظ القرآن الكريم في آيات وتأخرت في آيات لسياق الحديث،والمعنى العام للآيات كتقديم الآباء وتأخير الأزواج في آية وتقديم الأبناء وتأخير الأزواج في أخرى، وهذا كله مؤداه السياق العام للقرآن الكريم وبلاغته المعجزة.
٣. إنّ أسلوب التصوير القرآن في رسم مشاهده وإيضاحها ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقديم والتأخير، فقد أبرزت المعاني والصور والمشاهد عن طريق المعنى أو المشهد الحسي؛ لتأكيد الكلام وتثبيت المشاهد وإطلاق الخيال للمستمع أو القارئ. فليس كافياً أن نقول: إن التقديم والتأخير في بعض الآيات جاء لتناسب الفواصل الموسيقية، بل هناك معانٍ خفية لا يتدبرها إلاّ من تعمّق في هذا الأسلوب وطريقة ترتيب الكلام.
٤. التقديم والتأخير يراعي أحوال المتكلم والمخاطب معاً فالأولوية لهما، فلا يتم تغيير البناء الأصلي مراعاة لحال السامع دون المتكلم، كما نرى مثلاً في طرق إلقاء الخبر .

[1] - الطراز : ج٢ ، ص ٦٣ - ٦٤
[2] - البرهان : ج٣ ، ص ٢٤٩

٥. لم أقف على أحد من المفسرين تناول تقديم (مثل وغير) في القرآن الكريم، ربما لقلة ورودها، وربما لأنها من أدق غايات التقديم والتأخير، حيث يقدمان في الكلام ويكون تقديمهما من البلاغة ما ينعدم إذا أُخّر، وأشار إلى ذلك عبدالقاهر عندما قال:(فأنت إذا تصفحت الكلام وجدتَ هذين الاسمين يقدمان أبداً على الفعل إذا نُحي بهما هذا النحو، وترى هذا المعنى لا يستقيم فيهما إذا لم يقدما). ويرى البلاغيين المحدثين أن العرب آثرت تقديم هذين اللفظين، إذا استعملا في إثبات الحكم على سبيل الكناية لا على سبيل التعريض، وآخرون يرون أن الغاية التي يحققها تقديم هذين اللفظين أن التقديم للتقوية وتثبيت الحكم، ولكن الراجح أن العرب رأت في تقديمهما كلازم إذا أُريد من غير تعريض، وأن استعمالهما على هذا السبيل شيء مركوز في الطباع، وهو جارٍ في عادة كل قوم، لأن تقديمهما مما يحقق التأكيد ويفيد التقوية.

المصادر والمراجع:

١=الاتقان في علون القرآن: تأليف جلال الدين السيوطي، المتوفى (٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

٢ -أساليب الاستفهام في القرآن:عبدالعظيم السيد فوده، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، دار المعارف.

٣ -أسرار التقديم والتأخيرفي لغة القرآن الكريم: تأليف الدكتـــور محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٤ -أصول البلاغة: للإمام العلامة كمال الدين ميتم البحراني المتوفي سنة ٦٧٩هـ، تحقيق: الكتور عبدالقادر حسين، نشر وتوزيع دار الثقافة، الطبعة الأول، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٥ -الإيضاح في علو البلاغة: للإمام الخطيب القزويني، تحقيق: الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٦ -البرهان في علوم القرآن: تأليف الإمام بدرالدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٧هـ .

٧ -البرهان في متشابه القرآن: للإمام محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تحقيق أحمد عزالدين عبدالله خلف الله، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٨ -بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم: الدكتور عبدالله محمد النقراط، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأول، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، دمشق ،سوريا.

٩ -البلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنوناها: تأليف عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني، دار العلوم، دمشق – الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٠ -البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، وأثرها في الدراسات البلاغية: الدكتور محمد حسنين أبوموسى، دار الفكر العربي.

١١ -التبيان في إعراب القرآن: تأليف أبي البقاء عبدالله بن الحسين، تحقيق على محمد البجاوي، طبع دار إحياء الكتب العربية، مصطفى البابي الحلبي.

١٢ -التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الشرعية الرابعة عشر، القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٣ -تفسير البحر المحيط: لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، المتوفى (٧٤٥هـ)، دراسة وتحقيق: الشيخ عادل أحمد وآخرون، دار الكتب العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

١٤ -التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم: تحقيق د.عبدالعظيم إبراهيم المطعني، المكتبة التوفيقية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، دار المعارف، القاهرة.

١٥ -تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي.

١٦ -تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر بن جرير الطبري(٢٢٤ -٣١٠هـ)، تحقيق:الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار إحياء عالم الكتب للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرياض ١٤٢٤هـ .

١٧ -التقديم والتأخير ومباحث التراكيب بين البلاغة والأسلوبية: دكتور مختار عطية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ٢٠٠٥م.

١٨ -الجامع لأحكام القرآن الكريم: لأبي عبيدة محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٣م.

١٩ -جواهر البلاغة – في المعاني والبيان والبديع، تأليف: السيد أحمد الهاشمي، المكتبة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٢٠ -ديوان الأعشى: دار صادر ، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤.

٢١ -دلالات التراكيب: محمد أبوموسى ، دار المعلم، ١٣٩٩هـ.

٢٢ -شرح ديوان الفرزدق: ضبط إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٣ -غرائب القرآن ورغائب الفرقان: تأليف نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القني النيسابوري، المتوفي (٧٢٨هـ)، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨١هـ ١٩٦٢م.

٢٤ -فتح القدير، الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير: تأليف محمد بن على بن محمد الشوكاني، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٢٥ -الفواصل القرآنية: دراسة بلاغية، دكتور السيد خضر، توزيع مكتبة الإيمان، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ — ٢٠٠٠م.

٢٦ -القاموس المحيط: تأليف العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب آبادي المتوفى سنة (٨١٧هـ)، تحقيق: مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، بيروت ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٧ -كتاب دلائل الإعجاز: تأليف الشيخ أبي بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، الثالثة، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م.

٢٨ -كتاب سيبويه: تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٩ -كتاب الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: تأليف يحيى بن حمزة العلوي اليمني، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان.

٣٠ -الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للعلامة جار الله أبوالقاسم محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨هـ)، تحقيق وتعليق ودراسة: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود - الشيخ على محمد معوض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م، مكتبة العبيكان، الرياض.

٣١ -المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:لابن الأثيرٍ، تحقيق: د.أحمد الخوفي وآخرون، دار نهضة مصر، ١٩٧٣م.

٣٢ -معجم البلاغة العربية: تأليف الدكتور بدوي طبانة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار المنارة للنشر والتوزيع، جده، ودار الرفاعي للنشر والتوزيع، الرياض.

٣٣ -المعجم المفصل في علوم البلاغة:البديع والبيان والمعاني، إعداد الدكتورة إنعام فوّال عكّاوي، مراجعة: أحمد شمس الدين، دار الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٣٤ -مفتاح العلوم: تأليف أبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي حققه وقدم له وفهرسه: الدكتور عبدالحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣٥ -من أسرار اللغة: دكتور إبراهيم أنيس، مطبعة الأنجلو المصرية، الطبعة السابعة، القاهرة، ١٩٨٥م.

٣٦ -من بلاغة القرآن: أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطباعة والتشر، الفجالة، القاهرة، ١٩٥٠م.